(١)

رسالتك أيها المسلم[١]

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أدّي الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا علي «المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[٢]، من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وأصحابه؛ ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضوان الله عن الذين يدعون بدعوته، المهتدين بسنته إلي يوم الدين.

أما بعد.. فيا معشر المسلمين:

يقول الله تبارك وتعالي في كتابه المبين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ**﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

النداء المحبب:

أخي المسلم: في هاتين الآيتين يخاطب الله الذين آمنوا، ويستثير فيهم

---

(١) لفضيلة الشيخ حفظه الله خطبة بعنوان (مهمة الإنسان ورسالته في الكون) وهى أول خطب الجزء الأول، وهي تخدم هذا الموضوع. فلتراجع.

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٢) عن العرباض بن سارية، ونصه «قد تركتكم علي المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك ...» وقال مخرّجو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم (١/ ٩٦) وابن ماجه (٤٣).

معاني الإيمان، ويخاطبهم بهذه السمة الكريمة، سمة المؤمنين، وقد قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا؛ فارعها سمعك، فإنها خير يأمر به، أو شر ينهي عنه(١).

في هاتين الآيتين حدد الله رسالة المسلم في هذا الوجود، ومهمة المؤمن في هذه الحياة.

ما هي مهمة المؤمن؟

أخي المسلم:

ما هي مهمة المسلم؟! وما هي رسالة المؤمن؟!

أهي رسالة دينية روحية؟ أم هي رسالة خيرية اجتماعية؟ أم هي رسالة جهادية سياسية؟ أم هي رسالة تجمع ذلك كله في نسق جميل؟؟

الشعبة الأولي من رسالة المسلم: العبادة:

رسالة المسلم ذات شعب ثلاث، الشعبة الأولي: شعبة روحية، وهي التي يحددها قول الله تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾، أول شيء من مهمتك يا مسلم: الركوع، والسجود، وعبادة الله، إنك أيها الإنسان لست هذا الهيكل من اللحم والدم، والعظم والعصب، لست هذا الجسم الذي خلق من التراب وسيعود إلي التراب، وإنما أنت قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وسر من أسرار الملأ الأعلي، خلقك الله بيديه، ونفخ فيك من روحه، وجعل الملائكة لك حُفّاظا وخُدّاما، وأنزل الكتب، وأرسل إليك النبيين مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل.

منزلة الإنسان الحقيقية:

إنك أيها الإنسان في منزلة حسدتك عليها الملائكة حيث قال الله تعالي: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا**﴾ [البقرة: ١٠٤] (ج١/ ٦١).

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٣].

أراد الله بهذا أن يعقد امتحانا عمليا، ليظهر قدر هذا النوع الجديد، وفضل الإنسان على سائر المخلوقات. ففاق الإنسان الملائكة في (العلم) لأن الله هيأه ليقوم بعمارة الأرض، وخلافة الله فيها، فمنحه من المواهب والقدرات ما يمكِّنه من أداء مهنته.

أنت أيها الإنسان؛ صاحب هذه المكانة العُلْيا، أنت خليفة الله في أرضه، وسيد هذا الكون كله، أنت المتصرف في هذا الملك العظيم بأمر الله، ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

أيليق بك أيها الإنسان أن تهمل مهمتك، وأن تغفل مكانتك، وأن تجهل رسالتك، ويصبح كل همك دائرا حول معدتك، ولا تكن غايتك محصورة إلا في بطنك، تأكل لتعيش، وتعيش لتأكل.

فما لهذا خلقت، وما لهذا نزلت عليك الكتب، وبعثت إليك الرسل، وإنما خلقت لمهمة أسمى، ورسالة عظمى ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨]

وفي الأثر الإلهي: «يا عبادي إني لم أخلقكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة، ولكن خلقتكم لتعبدوني طويلا، وتذكروني كثيرا، وتسبحوني بكرة وأصيلا».

بهذه «الربانية» يكون فضلك أيها الإنسان، وليس فضلك في جسدك وجثتك، ولا في عنفوانك وقوتك، فإن في البهائم ما هو أضخم منك جثة، وفي السباع ما هو أشد منك قوة!!

إنما أنت أيها الإنسان قلب حي، ووجدان شاعر، وضمير يقظ، ونفس مشرقة، وهيهات أن يحيا القلب، ويستيقظ الضمير، وتضيء جوانب النفس إلا برحيق معرفة الله، وسلسبيل عبادته، ونور طاعته ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور: ٤٠] عبادة الله وحده: هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان، وسدله بقلم القدرة في فطرهم البشرية، وغرسه في طبائعهم الأصيلة، منذ وضع في رؤوسهم عقولا تعي، وفي صدورهم قلوبا تخفق، وفي الكون آيات تهدي ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [يس: ٦٠، ٦١] فلا عجب أن يكون المقصد العظيم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بربهم، وأن يكون النداء الأول لكل نبي: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٦٥] وصدق الله العظيم: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولقد جاء الإسلام من أول يوم يقود الناس إلى الله بزمام الدعوة والترغيب(١) والترهيب، حتى يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وليست العبادة في الإسلام شكلا

---

(١) ذكر فضيلة شيخنا العلامة القرضاوي في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب»: أن هذه الفكرة - الترغيب والترهيب، أو التبشير والإنذار - واضحة تمام الوضوح في القرآن الكريم والحديث الشريف. فالقرآن حافل بصور الوعد والوعيد، ومشاهد يوم القيامة، وأهوال الآخرة وأحوال الجنة والنار، وما ينتظر المؤمنين الأتقياء من نعيم مقيم، وما يعد للكافرين الطغاة من عذاب أليم، وهذا في القرآن كله، وبخاصة المكي منه.

وكما أن القرآن الكريم حفل بألوان الترغيب والترهيب، أو التبشير والإنذار، فإن السنة النبوية قد حوت كذلك منهما ألواناً وأنواعاً أكثر وأغزر، بحكم ما اقتضته طبيعة السنة من السعة والتفصيل. انظر: المنتقي (ج١ / ١٦).

يتعلق بالمظهر، أو رسما يتصل بالجسم، ولكنها سر يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح. فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته، ولم يخلص لله في طاعته، فسيردها الله عليه كما يرد الصيرفي النقاد الدراهم الزائفة ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة : ٥].

لماذا فرض الله العبادة؟

لماذا ألزم الله تعالي عباده بأوامره، وكلفهم بتكاليف، وفرض عليهم عبادات؟؟

هل كان في حاجة إلي عبادتهم؟ كلا!! إنه خالق الخلق، ومالك الملك، رب السماوات والأرض ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَي اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥]

أم هل أراد إعنات خلقه وإرهاقهم؟ كلا ثم كلا!! إنما أراد لهم الخير والصلاح، والتزكية والتطهير ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة : ٦].

فرض الله عليهم الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وأوجب عليهم الزكاة ليطهرهم ويزكيهم بها، وكتب عليهم الصيام لعلهم يتقون، وأمرهم بالحج ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله، وندبهم إلي تلاوة كتابه ليدبروا آياته، وليذكر أولو الألباب، وحثّهم علي الذكر والدعاء، لتعلو علي الدنيا همهم، وترتفع عن مطالب الخلق رؤوسهم ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَيٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [آل عمران : ١٠١] تلك هي الأهداف الكبيرة التي شرع الله من أجلها العبادات، فإذا لم تحقق هذه العبادات أهدافها، فقد فقدت روحها، ورُدّت علي صاحبها، « من لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعدا[١]، ومن لم تطهره زكاته فلا زكاة له، ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩ / ١٠٣) وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (٢ / ٢٥٨).

ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر، ورب حاج ليس له من الحج إلا اسمه، ورب تال للقرآن والقرآن يلعنه، ورب داع دعاؤه مردودعليه (١).

العبادة شاملة:

وليست العبادة في الإسلام مقصورة علي الفرائض والأذكار والأدعية، فإن الإسلام يعتبر الأرض كلها مسجدا فسيحا للمسلم، ومحرابا كبيرا للمؤمن، يستطيع أن يتعبد فيه التاجر في متجره، والزارع في حقله، والموظف في مكتبه، والطالب في مدرسته، ما دام يتقن عمله، ويبتغي به وجه الله، ويقصد به أن يكون ترسا عاملا في «دولاب» الإسلام المتحرك الكبير. وفي هذا يقول الحديث النبوي: «من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة، وسعيا علي عياله، وتعطفا علي جاره، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر»(٢).

المسلم عابد قانت لله، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، لا تثبطه عن عبادته شدة، ولا يغره رخاء، إنه ليجد في عبادته ربه في ساعة الشدة، أنسا لقلبه، وسكينة لنفسه، وانشراحا لصدره، كما قال الله لرسوله: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وفي ساعة المنحة والنعمة يذوق في العبادة حلاوة الشكر للمنعم، والحمد

---

(١) وردت عدة أحاديث في هذا المعني، ومنها:

١ - قوله (ﷺ): (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر) رواه أحمد في المسند (٨٨٥٦) عن أبي هريرة، وقال مخرجو السند: إسناده جيد، ورواه أبو يعلي (٦٥٥١) وابن خزيمة (١/ ٤٣١).

٢ - رُوي عنه (ﷺ) قوله: (إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته). رواه أحمد في المسند (٣٧٧٢) وقال مخرّجو المسند: إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢/ ٧٩) وذكره الألباني في الضعيفة (١٠٣٢).

لذي الجلال والإكرام، وما أروع خطاب الله لنبيه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر].

ولله ما أروع بلاغة القرآن فقد خص الركوع والسجود بالذكر وهما جزء من العبادة، كناية عن الصلاة وهي عمود الإسلام المتين، وعبادته اليومية المتكررة، وإشارة إلي فضل الركوع والسجود، لأنهما مظهرا الانقياد الحق، والخضوع الكامل الذي لا يكون إلا لله وحده، وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(١).

الشعبة الثانية من رسالة المسلم: فعل الخير:

الشعبة الثانية من رسالة المسلم حددها الله بقوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ففعل الخير شيمة المسلم وديدنه، فليس المسلم في المجتمع كلاً ولا عاطلا، وليس عاقا ولا مؤذيا، ولكنه ينبوع يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، يجد المجتمع في إسلامه سلاما لهم من كل شر، ويلمسون في إيمانه أمانا لهم من كل سوء.

الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة(٢):

وليس هذا فحسب ولكنه يفعل الخير، ويدعو إليه، ويبذل المعروف، ويدل عليه وفي الحديث الصحيح «من دل علي فعل خير فله مثل أجر فاعله»(٣) سمع قول ربه في الحديث القدسي: «أنا الله خلقت الخير والشر، فطوبي لمن خلقته للخير، وأجريت الخير علي يديه، وويل لمن خلقته للشر، وأجريت الشر علي يديه»(٤)، وانتصح بحديث رسوله الكريم: «إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢) عن أبي هريرة.

(٢) لفضيلة الشيخ كلام أدبي بليغ في كتابه (العبادة في الإسلام) تحت عنوان: «مجالات العبادة في الإسلام»: ص٤٧ وما بعدها. طبعة مكتبة وهبة.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٣) عن أبي مسعود الأنصاري.

(٤) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف (٥/٦٥).

مفاتيح، فطوبي لعبد جعله الله عز وجل مفتاحا للخير، مغلاقا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير»(١).

لقد ظلم نفسه، وظلم دينه ذلك المسلم الذي يعيش عالة علي الناس، وعضوا أشل في جسم الأمة، يأخذ من المجتمع ولا يعطيه، وينتفع منه ولا ينفعه، ويستمد منه ولا يمده، وإن الإسلام دين اجتماعي لا يعرف القعود، ولا يقر البطالة، ولو كانت في مظهر التبتل والعبادة.

وعلي المسلم أن يبذل جهده لنفع المجتمع الذي يعيش فيه، وإنعاش قوته، ودفع عجلة الخير فيه إلي الأمام. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا نبي الله مع الإيمان عمل؟ قال: «أن ترضخ مما خولك الله (أي تعطي مما ملكك الله) وترضخ مما رزقك الله». قلت: يا نبي الله فإن كان فقيرا لا يجد ما يرضخ؟ قال: «يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر»، قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، ولا ينهي عن المنكر؟ قال: «فليعن الأخرق» (الجاهل الذي لا يعرف صنعته)، قلت: يا رسول الله أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: «فليعن مظلوما»، قلت: يا نبي الله أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مظلوما؟ قال: «ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟ ليمسك أذاه عن الناس». قلت: يا رسول الله أرأيت إن فعل ذلك يدخل الجنة؟ قال: «ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتي تدخله الجنة»(٢).

بمثل هذه الروح يستحث النبي ﷺ كل مسلم مهما كان محدود الاستطاعة أن يدفع الضريبة الاجتماعية، ويؤدي زكاة ماله وعلمه وقوته، فيعطي الفقير، أو يرشد الضال، أو يعلم الأخرق، أو يأخذ بيد المظلوم، ولم يجعل الإسلام هذه الضريبة مالية فينفرد بها الأغنياء، ولا بدنية فيختص بها الأقوياء،

(١) رواه ابن ماجه في الإيمان (٢٣٨) عن سهل بن سعد، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/١٥٧) عن أبي ذر وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٨٧٦).

ولا علمية فيتميز بها المتعلمون، ولكنه جعلها ضريبة اجتماعية عامة، يؤديها كل امريء علي قدر طاقته، ويشترك فيها الفقير والجاهل الضعيف.

وأعجب من هذا وأروع أن الإسلام لم يفرض علي كل فرد ضريبة فحسب بل فرض على كل مفصل من مفاصل بدنه. روي الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة»(١) وإسماع الأصم، وهداية الأعمي، ودلالة المستدل علي حاجته، والسعي بشدة الساقين مع اللهفان المستغيث، والحمل بشدة الذراعين مع الضعيف صدقة كريمة، وحسنة عظيمة.

لقد أعلي الإسلام من شأن الخدمات الاجتماعية التي يحسبها الناس تافهة، وهي عند الله كبيرة، ويخالونها هينة وما أثقلها في ميزان الخير.

جاء رجل إلي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أي الناس أحب إلي الله؟ فقال: «أحب الناس إلي الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلي الله عز وجل سرور تدخله علي مسلم، تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهرا، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشي مع أخيه في حاجة حتي يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام»(٢).

الله أكبر.. ما أعجب هذا الدين العظيم، خطوات في قضاء حاجة مسلم أحب إلي رسول الله من عبادة عظيمة (هي الاعتكاف) في بيت من بيوت الله تقربا إليه لا يوما، ولا أسبوعا، ولكن شهرا، وفي أي البيوت؟؟!! هو مسجده ﷺ أحد مساجد ثلاثة لا تشد الرحال إلا إليها، المسجد الذي قال فيه: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»(٣).

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩) ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/٤٥٣) عن عبد الله بن عمر، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٠٦) وانظر: المنتقي من الترغيب للقرضاوي (١٥٧٤).

(٣) رواه البخاري في فضل الصلاة في مكة والمدينة (١١٩٠) عن أبي هريرة، ومسلم في الحج (١٣٩٥) عن ابن عمر.

أي مسلم ذي قلب يستمع إلي هذه المرغبات المغرية بما عند الله، ولا يقف جهوده علي الخدمة العامة؟ فيبذل من نفسه وماله وراحته في سبيل قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، ليدخرها الله له في الآخرة «ومن نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر علي معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر علي مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(١).

أي مسلم ذي قلب يسمع هذه المغريات ولا يعيش في أمته «مرهما» يأسو الجراح، وبلسما يشفي السقام، يطعم الجائع، ويروي الظمآن، ويكسو العريان، ويعود المريض، وهو يسمع مثل هذا الحوار البديع العميق بين الله وعباده في مشهد رائع غريب من مشاهد القيامة، عرضه علينا المربي الأعظم صلوات الله عليه وسلامه قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم: مرضت فلم تعدني!! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم: استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟!!. يا ابن آدم: استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»(٢).

الخير لكل الناس:

وإن من روائع إعجاز القرآن في الآية التي معنا أنه لم يقل: افعلوا الخير بالأقارب، أو بالمسلمين، أو بالعرب، أو الشرقيين، ولكنه أمر بفعل الخير أمرا مطلقا، غير مقيد بقيد خاص، ولا محدود بدائرة معينة، ليغمر المسلم بالخير كل طائفة، ويعم بالخير كل جنس، ويشمل بالخير كل دين، وأي حجة أوضح وأبلغ

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩) عن أبي هريرة.

من كتاب الله وهو يقول: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨]

ولأهل الكتاب وصية خاصة:

وإذا كانت هذه الآية قد نزلت في شأن المشركين فما بالك بأهل الكتاب وقد أباح الإسلام مصاهرتهم، ومؤاكلتهم ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** ﴾.

وما بالك بالمسيحيين منهم وهم أقرب مودة للذين آمنوا بنص القرآن؟

وما بالك بأقباط مصر خاصة وقد أوصانا رسول الله بهم خيرا[١].

وللحيوان نصيب:

وليس هذا في حاجة إلي بيان. فقد وسع الإسلام آفاق الخير للمسلم حتي شملت كل كائن حي في الوجود، فالجنة تفتح أبوابها لرجل سقي كلبا، فشكر الله له، فغفر له، حتي عجب الصحابة وقالوا: أئن لنا في البهائم لأجرا يا رسول الله؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[٢].

والنار تفتح مصاريعها لامرأة حبست هرةّ فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[٣].

ومن عجائب تعاليم الإسلام أن الله يثيب المسلم علي كل عمل ينتفع به، ذو روح إنسانا أو حيوانا، أو طائرا. وإن لم يكن قاصدا لكل جزئية من جزئيات هذا النفع مع تشديده في اشتراط النية في كل عمل.

---

(١) للمزيد من معرفة سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين راجع ما ذكره شيخنا في كتابه: «غير المسلمين في المجتمع المسلم». طبعة مكتبة وهبة.

(٢) رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٦) ومسلم في السلام (٢٢٤٤) عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٢) ومسلم في السلام (٢٢٤٢) عن أبي هريرة.

ففي الحديث الصحيح: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1].

المسلم بار بوالديه، واصل رحمه، محسن بجاره، عطوف علي الفقراء والمساكين، رحيم باليتيم وابن السبيل، رفيق بالطير والحيوان، استقر في شغاف قلبه نداء الحق ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

الشعبة الثالثة الجهاد في سبيل الله[2]:

الشعبة الثالثة: من مهمتك أيها المسلم هي الجهاد في الله حق الجهاد!!

فإنك يا ابن الإسلام صاحب دعوة: هي دعوة القرآن، وجندي فكرة: هي فكرة الإسلام، وحامل رسالة: هي رسالة محمد عليه الصلاة والسلام. تلك الرسالة التي جاءت لهداية العرب والعجم، وإنقاذ الغني والفقير، وتهذيب الرجل والمرأة، وإصلاح الفرد والمجتمع، وإرشاد الحاكم والمحكوم.. تلك الرسالة التي جاءت لتطرد الخرافة في العقول، والضعف في النفوس، والسلبية في الأخلاق، والإنحراف في السلوك، والبغي في الجماعات، والطغيان في الحكومات، جاءت لتربط بين الخلق وخالقهم، برباط الإيمان بالله، وتربط بين الإنسان والإنسان، برباط الإخاء والحب في الله.

تلك الرسالة التي تقول للضعفاء: شدوا سواعدكم، وتصحيح في الأذلاء: ارفعوا رؤوسكم، وتصرخ في النائمين: هبوا من سباتكم، وتنادي المستعبدين: أن حطموا قيودكم، وتدعوا المتجبرين: أن انزلوا من عروشكم، وحكموا من كبريائكم.

تقول للأغنياء: ﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ [النور: ٣٣] من أموالكم.

---

(١) رواه البخاري في الحرث والمزارعة (٢٣٢٠) ومسلم في المساقاة (١٥٥٣) عن أنس.

(٢) أوشك شيخنا من الإنتهاء من كتابه القيم «فقه الجهاد» وهو موسوعة علمية تتحدث عن الجهاد من كل جوانبه، نسأل الله أن يعينه علي إتمامه.

وتقول للمتفاخرين: «من بطأ به علمه لم يسرع به نسبه»[1]. وتقول للحكام: «إنما أنتم أجراء الشعب، وأمناء الحق».

وتقول للناس جميعا: الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي علي أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوي»[2].

لابد للرسالة الحقة من خصوم:

مثل هذه الرسالة الثورية الشاملة: لا بد أن يكون لها خصوم معاندون، وأعداء مكابرون، يدافعون عن مصالحهم، وينافحون عن نفوذهم، ويحاربون عن باطلهم، فلا بد من احتكاك، ولا مفر من صدام.. فعلي المسلم: أن يعد العدة، ويأخذ الحذر، ويشهر سيف الحق، ويحمل معول التطهير، ليهدم صروح الباطل، ويثل عروش الجبروت، ويطمس معالم الطغيان، ويوطد دعائم الحرية للعقائد كلها، حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

لهذا كتب الله القتال علي المسلمين كما كتب عليهم الصيام، وأمرهم بالجهاد كما أمرهم بتقواه: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٣٥].

ونادي المتثاقلين عن الجهاد نداء صارخا فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَي الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [التوبة: ٣٨].

ثم حذرهم عاقبة التخاذل والقعود: ﴿**إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَيْ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [التوبة: ٣٩].

ثم دعا الجميع دعوة شاملة، وعبأهم تعبئة عامة فقال: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٤١].

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) عن رجل من الصحابة، وقال مخرّجو المسند: إسناده صحيح.

الغاية من الجهاد:

ليس جهاد المسلم لدنيا يصيبها، أو أرض يستعمرها، أو سوق يفتحها لسلعه، أو منطقة ينشر فيها نفوذه، أو لعصبية ينصرها، أو لشهرة ينشدها، ولكن جهاده كما أمره القرآن (في الله) في ذاته، وفي سبيله وابتغاء مرضاته، وإعلاء كلمته.

جاء رجل إلي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليري مكانه.. فأيهم في سبيل الله، فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

غايات مرفوضة:

إنه ليس غاصبا ولا مستعمرا، ولكنه حامل شعلة النور إلي الإنسانية، اختاره الله ليكون داعي حقه، وهادي خلقه، وصدق الله (هو اجتباكم).

جعل الله الجهاد من رسالة المسلم، ولم يرض منه ببعض الجهاد، أو بقليل من الجهاد، ولكنه أمره بالجهاد حق الجهاد (وجاهدوا في الله حق جهاده) ليشمل كل ألوان الجهاد المستطاع: جهاد القلم واللسان، جهاد الحجة والبرهان، جهاد السيف والسنان، جهاد النفس والمال.

يبذل المسلم ما في طاقته، ويفرغ ما في جعبته. فإن عاش عاش كريما حميدا، وإن مات مات شهيدا ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**﴾ [محمد: ٤ – ٦].

ذلكم هو شأن المسلم مع أعداء الله وخصوم الحق، منطقه معهم هو الجهاد، والجهاد وحده، ليس منطق المداهنة والمهادنة، ولا منطق المحادثة والمفاوضة، وإنما

---

(١) متفق عليه رواه البخاري في التوحيد (٧٤٥٨) ومسلم في الجهاد (١٩٠٤) عن أبي موسي وانظر اللؤلؤ والمرجان (١٢٤٣).

هو منطق يرد علي المعتدين بالكتيبة لا بالكتاب، وبالسيف لا بالقلم، وبالدماء لا بالمداد، وبضربات الخناجر لا بصيحات الحناجر.

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

علي هذا الضوء فافقه رسالتك أيها المسلم، وفي نور هاتين الآيتين حدد علاقتك بالله والناس.

علاقتك بالله الركوع والسجود والعبادة ﴿ **ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾.

علاقتك بالمجتمع فعل الخير ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

علاقتك بأعداء الله الجهاد وحق الجهاد ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾.

وبهذا الميزان الدقيق زن إسلام المسلمين، وإيمان المؤمنين، فشأن المسلم أن يكون له في كل ميدان عملا وفي كل مجال إنتاجا وفي كل ناحية نشاطا.

هو في الميدان الروحي: خاشع عابد راكع ساجد، وفي الميدان الاجتماعي: منتج نافع بار خيِّر، وفي الميدان العسكري: بطل مجاهد وجندي مناضل، وفي كل ميدان رافع الراية وحامل اللواء.

ليس من الإسلام:

فإذا رأيت جماعة كل همهم: الركوع والسجود، والتسبيح والتحميد، ولكنهم يغفلون فريضة الجهاد، ويهملون قضية الإسلام، فقل لهم: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وإذا رأيت جماعة يقنعون من الإسلام بأداء بعض الخدمات، وفعل الخيرات، ويهملون عبادة الله فقل لهم: لستم بالمسلمين الصادقين، وإذا رأيت جماعة يقولون: الوطنية الوطنية، الجهاد الجهاد، ولكنهم لا يعرفهم المحراب عابدين، ولا يعرفهم الله خاشعين، فقل لهم: لستم بالمسلمين الصادقين.

ورضي الله عن أصحاب رسول الله ومن تبعهم بإحسان، فقد فقهوا رسالتهم حق الفقه، وآمنوا بها كل الإيمان، ووهبوا لها كل ما يملكون من نفس وجهد ومال.

كانوا في المحاريب، والمساجد باكين خاشعين، ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، ﴿ **أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٨٣]، وتري علائم الجد والحزن علي وجوههم، مما استقر في قلوبهم من خوف الله، ﴿ **إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢].

أما في المجتمع فكانوا أسخياء رحماء، محسنين كرماء، يحسنون إلي الجار، ويطعمون المسكين، ويكرمون اليتيم، ويقرون الضيف، بل كانوا يطعمون من حرمهم، ويصلون من قطعهم، ويبذلون لمن منعهم، ويحسنون إلي من أساء إليهم، ويجودون بالشيء، وهم أشد حاجة إليه، حتي نزلت آيات الكتاب العزيز تسجل لهم هذه المآثر العظيمة ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ [الإنسان: ٨ – ١٠]، ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩].

وكانوا في الميادين: أبطالا مغاوير. يهجم أحدهم علي صفوف العدو وهو يقول: إني أشم ريح الجنة[١]، ويطعن بالرمح في صدره فينفذ من ظهره فيقول: فزت ورب الكعبة[٢]، ويسعي إلي لقاء الموت ركضا، ويتلقي الضربات مبتسما وهو يرتل: ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ [طه: ٨٤].

هكذا كان رجال الإسلام الأولون، كانوا كما وصفهم الخصوم والأنصار:

---

(١) القائل هو: أنس بن النضر في أحد حين لقيه سعد بن الربيع فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١).

(٢) القائل هو حرام بن ملحان في فاجعة بئر معونة. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٠٦).

رهبان الليل وفرسان النهار بل كما وصفهم الله ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

مثال للمؤمن الجامع لكل هذه الصفات:

تلك هي أوصافهم: شدة صارمة علي أهل الكفر والعدوان، ورحمة رحيمة بأهل الإيمان، وركوع وسجود يبتغي بهما فضل الله ورضوانه، ونمو ونضوج يعجب المؤمنين ويغيظ الكافرين.

ويتمثل أمام عيني في هذا المقام (جعفر بن أبي طالب) مثل المؤمن الشديد الرحيم، العابد المحسن المجاهد، فقد فر بدينه إلي الحبشة، فكان أمير المهاجرين بها، وحادث النجاشي فكان نعم السفير اللبق، وقرأ عليه القرآن، ودعاه إلي الإسلام، فكان نعم الداعية المخلص الفقيه.

وكان في المسلمين جوادا كريما ممدحا، وكان لكرمه يقال له (أبو المساكين) لإحسانه إليهم.

فلما كان يوم مؤتة وثلاثة آلاف من المسلمين يحاربون مائتي ألف من الروم، ونصاري العرب، في غير أرضهم، واستشهد زيد بن حارثة، فتولي القيادة جعفر، وقاتل قتال الأبطال، وثبت ثبات الجبال. قال أحد شهود المعركة: والله لكأني أنظر إلي جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل القوم حتي قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إن لقيتها ضرابها

روي المؤرخون وأصحاب السير: أن جعفر أخذا اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتي قتل، فأثابه الله بدل يديه جناحين يطير

بهما في الجنة حيث يشاء قال عليه السلام: «رأيت جعفر بن أبي طالب يطير في الجنة ذا جناحين يطير بهما حيث يشاء مضرجة قوادمه[1] بالدماء» ومن أجل ذلك سمي جعفر الطيار. ولما قتل وجد في جسده بضعا وتسعين ما بين ضربة، وطعنة، ورمية، ليس شيء منها في دبره رضي الله عنه[2].

أيها المسلمون: بهذه البطولات الفذة نقتدي، وبهذه الأضواء المؤمنة نهتدي، وفي هذه السبيل المنيرة يجب أن نسير، أما هذه الغفلة عن رسالتنا السامية، وتاريخنا المجيد، وواجبنا العظيم، أما أن يظل الحال كما نري:

مسلمون وهم لا يركعون ولا يسجدون.

مسلمون وهم عن فعل الخير معرضون.

مسلمون وهم عن الجهاد قاعدون متخلفون.

فهذا ما لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون. فإلي الله إلي الله أيها الغافلون، وإلي عمل الخير وخير العمل أيها الأنانيون، وإلي الجهاد أيها القاعدون، وإلي الإسلام الحقيقي أيها المسلمون ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾.

* * *

(١) قوادم الطير: مقاديم ريشه، وهي عشر في كل جناح، والواحدة منها تسمي: قادمة. انظر: مختار الصحاح (٢١٩).

(٢) للمزيد من تفاصيل هذه المعركة الخالدة انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٥).

(٢)

حاجتنا إلي رجال[١]

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه. وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، القائم علي كل نفس بما كسبت، والعليم بأسرارها وإن خفيت، ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. كان أشد الناس مراقبة لربه، ومحاسبة لنفسه، ومع ذلك كان يقول لأمته معلما ومرشدا: « يا أيها الناس توبوا إلي الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة »[٢].

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وصحابته، ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ورضوان الله عن الداعين بدعوته، السالكين سبيله، المجاهدين جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد ... فيا أيها الإخوة المسلمون:

أمنية عمرية:

جلس عمر رضي الله عنه مع جماعة من أصحابه في إحدي دور المدينة فقال

---

(١) لفضيلة الشيخ مقالة بعنوان: (أمنية عمرية أو حاجتنا إلي رجال) وهي إحدي المقالات والبحوث التي جمعها في كتابه: (من أجل صحوة راشدة). طبعة دار الشروق، ط الأولي ٢٠٠١ م.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) عن الأغرّ المُزَني.

لهم: تَمَنَّوْا.. فقال بعضهم: أتمني أن تمتليء هذه الدار فضة أنفقها في سبيل الله، وقال آخر أتمني أن تمتليء هذه الدار ذهباً أنفقه في سبيل الله، وقال آخر: أتمني سيوفا ورماحا أمد بها المجاهدين. وقال عمر الخبير بما تحتاجه الدعوات والنهضات: أما أنا فإني أتمني أن تمتليء هذه الدار رجالا مثل: أبي عبيدة بن الجراح، وسالم مولي أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، فأستعملهم في طاعة الله.

وإذا كان لنا نحن أن نتمني شيئًا فإننا نتمني لهذا الشرق المضيع رجالا من هؤلاء.

من الرجال المصابيح الذين همو كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم، من أي ناحية أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

مقومات القوة في الأمة الإسلامية:

نحن أبناء الشرق الإسلامي، نعيش في بقعة لعلها أخصب بلاد الله أرضا، وأعدلها جوا، وأطيبها هواء، وأصفاها شمسا، وأعظمها موقعا، وأكثرها امتلاء بالمعادن المذخورة، والثروات المنثورة[1]، ولو أن الله جمع الناس في صعيد واحد، وخيّرهم بين الأقطار والبلاد ما اخترنا أفضل من الموقع الذي نعيش فيه، ولكن الذي ينقصنا شيء آخر غير معادن الحديد والنحاس، والغاز والبترول، إنه معدن غال نفيس هو: معدن الرجال!!

الرجل الحقيقي أساس كل إصلاح:

الرجل هو إكسير الحياة، ومحور الإصلاح، وعماد النهضات، وروح الدعوات، أعد ما شئت من معامل للذخيرة والسلاح، فلن تقتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب!! وضع ما شئت من القوانين واللوائح فستظل حبرا علي ورق ما لم تجد الرجل الذي ينفذها!! وضع ما شئت من برامج للتربية والتعليم فلن يغني البرنامج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه!! وأنشيء ما شئت من لجان فلن تنجز مشروعا إذا حرمت الرجل الغيور!!

---

(١) انظر ما ذكره فضيلة الشيخ في كتابه: (الأمة الإسلامية.. حقيقة لا وهم) تحت عنوان: «مقومات القوة في الأمة» ص٣٥ وما بعدها طبعة مكتبة وهبة ط الأولي ١٩٩٥ م.

ذلك ما يقوله الواقع الذي لا ريب فيه.

إن القوة ليست في حد السلاح بقدر ما هي في قلب الجندي، والتربية ليست في صفحات الكتاب بقدر ما هي في روح المعلم، والعدل ليس في نص القانون بقدر ما هو في ضمير القاضي، والسرعة ليست في تكوين اللجان بقدر ما هي في حماسة أصحابها.

رجولة ورجولة:

إن رجلا واحدا قد يساوي مائة، ورجلا قد يوازي ألفا، ورجلاً قد يزن شعبا. وقد قيل: (رجل ذو همة يحي أمة) بل قال قائل:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

روي التاريخ أن عمرو بن العاص جاء يفتح مصر، ويطرد الإمبراطورية الرومانية من هذا البلد العريق بجيش صغير؛ يتكون من أربعة آلاف جندي، ثم بعث إلي عمر يطلب منه مددا، فأرسل إليه عمر بأربعة آلاف رجل، علي رأسهم أربعة رجال. عدّ عمر كل واحد منهم بألف، وحينئذ فلن يُغْلَب اثنا عشر ألفا من قلة..

ولكن ما هو الرجل؟ هل هو الذكر البالغ من بني الإنسان؟ إذن فما أكثر الرجال!!

الرجولة ليست بالسن:

إن الرجولة ليست بالسن المتقدمة، فكم شيخ في سن السبعين وقلبه في سن السابعة، يفرح بالتافه، ويبكي علي الحقير، ويتطلع إلي ما ليس له، ويقبض علي ما في يده، حتي لا يشركه فيه غيره، فهو طفل صغير؛ ولكنه ذو لحية وشارب.

وكم من غلام في مقتبل الصبا، ولكنك تري الرجولة المبكرة في قوله وعمله، وخلقه وتفكيره.

مرَ أمير المؤمنين (عمر) رضي الله عنه في طريق، وثلة من الصبيان يلعبون فهرولوا هاربين إلا (عبد الله بن الزبير) فثبت في مكانه دون إخوانه، فقال له عمر: لماذا وقفت يا غلام؟ ولم تعد مع أصحابك. فقال: يا أمير المؤمنين لم أقترف ذنبا فأخاف منك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسعها لك: فأعجب به عمر، وأثني عليه.

وجاء وفد إلي أحد الخلفاء، فقدموا فتي يافعا يتكلم بلسانهم. فقال الخليفة: ليتقدم من هو أسن منك. فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في الأمة من هو أولي منك بالخلافة. ولكن إذا آتي الله المرء لسانا لافظا، وقلبا حافظا، فقد استحق التقدم والكلام.

أولئك لعمري هم الصغار الكبار، أما اليوم فما أكثر الكبار الصغار!

الرجولة ليست بالجسم:

وليست الرجولة بضخامة الجسم، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، لا بضخامة جثمانه. وماذا تنتفع الأمم بأجسام البغال وأحلام العصافير؟ وما أحكم المثل العربي الذي يقول: (تري الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل).

وقد حدثنا القرآن عن جماعة من المنافقين فقال: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ** ﴾ [المنافقون: ٤]، ومع هذا يقول عنهم ﴿ **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ [المنافقون: ٤].

وفي الحديث الشريف: يأتي الرجل العظيم السمين عند الله يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة.. اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالي: ﴿ **فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ [الكهف: ١٠٥][1].

كان عبد الله بن مسعود قصير القامة، نحيف الجسد، فرأي بعض الصحابة

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩) عن أبي هريرة ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥) عن أبي هريرة.

يوما ساقيه وهما دقيقتان هزيلتان. فضحكوا منها.. فقال النبي ﷺ: «مما تضحكون؟» قالوا: من دقة ساقيه، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»[1].

ليست الرجولة بالمظهر:

وليست الرجولة بالفخامة والمظهر، فـ«إن الله لا ينظر إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم[2]، ورب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم علي الله لأبره»[3].

والمرء بآدابه لا بثيابه، والسيف بجوهره لا بجرابه، ورحم الله القائل:

علي ثياب لو ينادي لبيعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها ... نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

وليست الرجولة بالمال:

وليست الرجولة بالغني والمال. فرب غني فقير، ورب فقير غني، «وليس الغني عن كثرة العرض إنما الغني غني النفس».

إن الغني هو الغني بنفسه ... ولو آنه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافيا ... وإذا قنعت فبعض شيء كاف

ليست الرجولة بالمنصب والجاه:

وليست الرجولة بالجاه والمنصب.. فكم من أناس يتولون مناصب كبري، ويديرون أعمالا، ويرأسون مصانع، ويتقلدون وزارات، ولكن ذلك لم يمنع أحدهم أن يحني هامته في سبيل درجة يرتقيها، أو يضحي بكرامة في سبيل زلفي إلي رئيس.

---

(١) رواه أحمد (٣٩٩١) عن ابن مسعود وقال مخرجو المسند: صحيح لغيره، ورواه الطبراني في الكبير (٨٤٥٣) وابن أبي شيبة (١٢/١١٣).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) عن أبي هريرة، وفي رواية «إن الله لا ينظر إلي أجسادكم ولا صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم».

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢) عن أبي هريرة.

كبرت مناصبهم وصغرت نفوسهم، وعلت منازلهم وانحطت هممهم.

الرجولة الحقيقية:

ليست الرجولة بالسن، وليست الرجولة بالجسم، وليست الرجولة بالمظهر، وليست الرجولة بالمال، وليست الرجولة بالمنصب، وليس يقاس الرجل بواحد من هذه المقاييس العرجاء.. وإنما الرجولة الحقة: قوة نفسية تحمل صاحبها علي معالي الأمور، وترفعه عن سفاسفها، قوة تجعله كبيرا في صغره، قويا في ضعفه، غنيا في فقره.

قوة تحمله علي أن يعرف حقه فيطلبه عزيزا كريما، ويعرف واجبه فيؤديه مخلصا أمينا، واجبه نحو نفسه، واجبه نحو ربه، واجبه نحو بيته، واجبه نحو مجتمعه، واجبه نحو دينه، واجبه نحو أمته. يعينه علي أداء هذه الواجبات إدراك دقيق، وشعور رقيق، وإيمان عميق، وضمير يقظ، وخلق متين.

والرجولة في الإسلام ربيبة الإيمان بالله، وقرينة الطاعة لله، فالإيمان وحده هو الذي يصنع معاني الرجولة، ويربي أخلاق البطولة، ويطبع النفس علي معالي الأمور، ويبعدها عن سفاسفها.

أين تنشأ الرجولة؟

وفي ظلال عبادة الله، وبين جدران المساجد الخاشعة، يتربي الرجال المؤمنون الصادقون، وقد وصف الله رواد المساجد فقال: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وقال: ﴿**لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَي التَّقْوَي مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ [التوبة: ١٠٨].

الرجولة لا تعني العصمة:

ولن تجد الرجولة في أجلي صورها، وأكمل معانيها كما تجدها في تلك النماذج الرائعة التي صنعها الإسلام، ورباها سيد الرسل عليه الصلاة والسلام.

لا نزعم أنهم كانوا ملائكة مقربين لا يعصون، ولا يخطئون، ولكنهم كانوا إذا مسهم طائف من الشيطان ﴿ **تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فإذا تورطوا في فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴿ **ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكثيرا ما جاءوا مسرعين إلي رسول الله ﷺ يعترفون بالخطايا، ويلتمسون التطهير ويطلبون أن يقام عليهم حد الله(١).

وكانوا إذا فاتتهم غزوة من الغزوات ظلّوا متشوقين إلي أختها، حتي يدفعوا ضريبة الإيمان، ويأخذوا من الجهاد بأكبر نصيب.

روي البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله: غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني في قتال المشركين ليرين الله ما أصنع «فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون فقال لهم: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني الصحابة - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مُثّل به، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. فقال أنس: كنا نري أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ٢٣](٢).

ذلك عصر كانت أرضنا تنبت فيه رجالا مع الزروع والأشجار، رجالا

---

(١) ولعل أروع مثل لذلك موقف ما عز الأنصاري والمرأة الغامدية حين أتيا إلي رسول الله ﷺ.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥) عن أنس.

يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع، رجالا لا يغريهم الوعد ولا يثنيهم الوعيد، رجالا لا يزهيهم النصر، ولا تحطمهم الهزيمة، رجالا كانوا ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩].

رجولة الأمس واليوم:

أما اليوم فإننا نفتش عن الرجال كما نفتش عن الذهب في الأرض، وقد نعثر في الفينة بعد الفينة علي الرجل بعد الرجل، وقد نذرع البلاد ذهابا وإيابا فلا نجد إلا غُثاء كغثاء السيل!

وأين الرجولة في هذا الذي فقد الوفاء فغدر وفقد العفاف ففجر، وفقد الأمانة فخان، وفقد شجاعته فأصبح جبانا، وفقد صلابته فصار رخوا، وفقد غيرته فأصبح يقدم امرأته تراقص الأجنبي علي مسمعه ومرآه؟

لقد كان العرب في الجاهلية – علي ما فيهم من انحراف – علي كثير من معاني الرجولة فقد كان فيهم مثل (عنترة) الذي يغشي الوغي ويعف عند المغنم! والذي يقول عن نفسه:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتي يواري جارتي مأواها

وقد كان فيهم مثل (عبد الله بن عبد المطلب) الذي تراوده امرأة عن نفسه وهو في حرارة الشباب وعنفوان الغريزة، فيجيبها بمنطق الرجولة:

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه
يحمي الكريم عرضه ودينه فكيف بالأمر الذي تبغينه

وكان فيهم من يفي بالكلمة تخرج من فيه، مهما كلفته من غالي الثمن، ويقول:

ولا أقول: نعم يوما وأتبعها بلا ولو ذهبت بالمال والولد

فإذا كانت الجاهلية تخرج مثل هؤلاء الرجال فما بال أبناء الإسلام قد فقدوا أولي خصائصهم وهي الرجولة؟

الاستعمار وراء هذا البلاء:

أما لو فتشنا عن السر، وبحثنا عن العلة لتبين لنا أن الاستعمار قد وضع نصب عينيه وفي مقدمة برامجه المحرمه أن يقتل رجولة المسلمين. ومن هنا غزانا بجسد المرأة الخليعة، ونشر الملاهي المحرمة، وإشاعة المسكرات والمخدرات القاتلة، واطغاء العبث والمجون، علي الجد والعمل، وفسح المجال لغلبة الرذيلة علي الفضيلة، وإبعاد تعاليم الدين عن المجتمع. وبهذه الطريقة انتصر في حربه الروحية والفكرية والنفسية، وعبث الفساد بالرجولة والأخلاق كما تعبث الرياح بالأوراق.

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

وليت شعري: أين الرجال الذين تُتَقَي بهم المكاره، وتُسَدُ بهم الثغور، وتَصْلُح بهم الجماعات، وتنهض بهم الشعوب، وتحقق بهم الآمال؟!!

اغدوا وروحوا هنا وهناك، وارجعوا البصر كرتين. فهل تري إلا أحلاس المقاهي، ورواد الملاهي، وعشاق الخمر والميسر، ورواد الشوارع والميادين، وأتباع الغاديات والرائحات، وعباد الغرائز والشهوات؟!![1]

أليس هؤلاء أولي الناس بوصف الإمام علي: «أشباه الرجال ولا رجال، وطغام الأحلام، وعقول ربّات الحجال».

وإني لتحضرني كلمة قرأتها لرجل أجنبي درس الإسلام؛ وأعجب بتعاليمه؛ فلما سئل عنه قال: ما أعظمه من دين لو كان له رجال.

أجل!! دين عظيم ولكن المسلمين غير عظماء، دين قوي ولكن أبناءه غير أقوياء، دين عزيز ولكن أتباعه ليسوا بأعزاء.

يا عجبا!! دين له خمسمائة مليون مسلم[2] منسوبون إليه، محسوبون

---

(١) هذه الصورة القاتمة التي رسمها الشيخ في شبابه، تغيرت كثيرا بحمد الله، وقد نوّه الشيخ بهذا التغيير في العديد من كتبه، وضرب شباب الصحوة أروع الأمثلة للرجولة الصادقة، فامتلأت بهم المساجد وازدحمت بهم مواسم الحج والعمرة، وتعطرت بدمائهم أراضي الرباط وساحات الجهاد.

(٢) المسلمون الآن أكثر من مليار وثلث مليار.

عليه، ومع هذا فهو لا يجد رجالا.. أما والله لو ظفر الإسلام في كل ألف من أبنائه برجل واحد[1] - بكل ما في الرجولة من معان - لكان ذلك خيرا له، وأجدي عليه، من هذه الجماهير المكدسة، وهذه الملايين (المملينة) الذين يجمعهم مزمار، وتفرقهم عصا، هؤلاء الذين كأنهم صنعوا من زجاج فلا يسترون عورة، ولا يتحملون رميا.

فليت لي بهمو قوما إذا ركبوا شنوا الإغارة فرسانا وركبانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات علي ما قال برهان

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

* * *

(١) لفضيلة الشيخ نداء في قصيدته (يا أمتي وجب الكفاح) وفيها يقول:

يا ألف مليون وأين هم و. إذا دعت الجراح؟
هاتوا من المليار مل يونا صحاحا من صحاح
من كل ألف واحدا أغزو بهم في كل ساح

انظر: نفحات ولفحات ص ١٣٠.